مغيث الخلق

في ترجيح القول الحق

لأبي المعالي عبد الملك الجويني
الشهير بامام الحرمين

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هجرية — ١٩٣٤ ميلادية

المطبعة المصرية
محمد محمد عبد اللطيف

كما لا سبيل إلى انتحال مذهب الصديق رضى الله عنه ، مع أنه قدوة العالمين وأسوة الخلق أجمعين قال النبي صلى الله عليه وسلم « والله ماطلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبى بكر »

فان قيل : فعلى هذا ينبغى أن يكون الشافعى دون أبى حنيفة فى الفضل ، وينبغى أن تسلموا أنه كان تلميذاً له حيث نحل مذهبه

فالجواب قلنا : الآن نحن لانتكلم فى دواعى التشعيب والتشبيب، فان الشافعى كان عالماً فى الاصول والفروع واللغات وأنواع العلوم ، وأبو حنيفة لم يكن له قدم مترسخة فى بعض هذه العلوم على ما لايكاد يخفى ، وكان أبو حنيفة ذا فن واحد ، ونظر الشافعى فى كتبه ليعلم مقالته لايدل على كونه تلميذاً له من حيث انه نظر فى مذاهب كافة الأئمة حتى يعلم حقيقتها ثم يتتبعها بالنقض والرفض ، والابطال والاستئصال

مثلا ، والسنة لا تكون خيراً من الكتاب ولا مثلا له، فلا جرم لايجوز نسخ الكتاب بالسنة أصلا ، انما تلقى الشافعى هذا من هذا الاصل فهذا منه اذا لم يكن أصلا مقطوعا ببطلانه ، وعلى أنه قد قيل ان الانصاف خير فى كل شيء والانصاف أن يسلم وجه ضعف هذا الأصل ، ولكن نقول هذا أصل لايبنى عليه شيء من الفروع ولا من التفاصيل فضعفه وفساده لا يوقع خللا فى مذهبه ولا يمنع مقلديه من الاتباع وعلى أنه قد وقع لابى حنيفه أيضاً أصول باطلة مقطوع بها منها :

القول بالاستحسان : وذلك عمل بلا دليل ، فان حاصله يرجع الى أن الدليل معكم من الخبر والقياس ولكنى أستحسن مخالفته وهذا اثبات للشرع من تلقاء نفسه وقال الشافعى رضى الله عنه حين ناظر محمد بن الحسن فى هذه المسألة : من استحسن فقد شرع ، ومن شرع فقد أشرك . هذا معناه

لا تستند إلا بالأصول ، والأصول على الكتاب والسنة والآثار والاجماع وما اليها ، والعلم بالرأى المستند إلى هذه الأصول . فمن كان أعلم بهذه الأصول الأربعة كانت أصوله أوفى بالوقائع ، وأتم واع لجميع المسائل

والأصول مواد ثلاثة : اللغة والكلام والفقه لأن الشريعة عربية والشافعى كان من صميم العرب ، بل ممن تفقأت بيضة مضر عنه ، ثم اشتهر بمعرفة الأخبار والآثار . وأنه كان من أعلم الناس بالاحاديث والاخبار . وقال إمام المسلمين أحمد بن حنبل رضى الله عنه لما لقى الشافعى رضى الله عنه « جاءنا صيرفى الحديث » وقال الشافعى رضى الله عنه « من علم الحديث غزرت حجته » وان أبا حنيفة رضى الله عنه كانت بضاعته من علم الحديث مزجاة ، والذى يدل عليه أن أصحاب الحديث شددوا النكير على أبى حنيفة رحمه الله فقالوا : إن أقواما

أعوزهم حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعملوا الرأى ، فضلوا وأضلوا ، والذى يقربه من أفهام العوام أن أصحاب الحديث تابعوا الشافعى ، وأخذوا بمذهبه ولازموه ، وبالغوا فى تعظيمه ، وتفخيمه ، وجعلوه مقدماً على غيره وشددوا القول وأظهروا النكير على أبى حنيفة رحمه الله . ولم يكن ذلك لقوله بالقياس ، وإنما كان لتوسعه فى القياس وخروجه عن الحد ، دون استقصاء معرفة المآخذ التى هى الأساس ، ومنها يتلق القياس ، وهذا حسن جداً فى إبانة تقديم الشافعى فى علم الحديث

وانضم عليه أنه كان يتبين للعامى تقديم الشافعى فى علم الاحاديث والرأى المقتبس منه ، وكذا يتبين للمسترشدين المستبصرين المستظرفين تقديمه أيضاً فيهما ، ومنهم من رزق بعض اليقظة ووفق بعض الانتباه ، وإن كان الكل مستدلا منسلكا فى سلك المقلدين ، ومتى أرينا لكل واحد من هذين الفريقين

تلائم الأصول والقواعد والأساس ، وتناسقها وتلائمها ولا تحيد عنها . ونظر أبي حنيفة وان دق الا أنه لا يوافق الأصول ويخالفها ويحيد عنها ، وأكثر نظره يخالف الكتاب والسنة والآثار واجماع الأمة على ما أسلفنا شرحها ، وفى المعانى أيضاً كذلك على ما نبين شرحها بعد ان شاء الله تعالى وبه الثقة

والشافعى رحمة الله عليه قسم القواعد الى قسمين : الى ما يعلل ، ومالا يعلل . فمال الاتباع الى مالا يعلل ، ثم ترك جلى القياس الذى يعتلقه أوائل الأفهام ، وتلقى من قواعد شرعية فان الاخلال بها من دواعى الخبط ، وغواشى الاضطراب . ويتقاصر أفهام العباد عنه ، كما امتنع عن القياس فى ازالة النجاسة ، وقال أبو حنيفة المعقول قصد الازالة ، وكلما يحصل به الازالة فهو مزيل ، وقال الشافعى : هذا مما يعقل فى الجملة ، الا أن الأمر ليس

والارض ! وقال ينعقد البيع بغير لفظه والنكاح بغير لفظه ، والتكبير بغير لفظه ، والقرآن بغير نظمه حتى لو قرأ فارسية القرآن فى الصلاة تنعقد صلاته ، وهذا مزج فن بفن وخلط قبيل بقبيل ، وذهول عن الدقائق . فاذن الشافعى أتم نظرا فى القياس وأعم تدقيقاً من أبى حنيفة ، فلهذا استنكف محمد بن الحسن وأبو يوسف عن متابعته فى ثلثى مذهبه ووافقا الشافعى رحمهم الله فى أكثر المسائل وذلك لأنه ذهب الى انتحال المذاهب ، وتقديم الأظهر فالأظهر وأقدم عليه بقريحة وقاده وفطنة منقادة ، وعقل ثابت ورأى صائب بعد الاستظهار بعلم الأصول والاستمداد من جملة أركان النظر فى المعقول والمنقول فاستبان على القطع انه أبعد من الزلل والخطأ

فان قيل : جل اعتمادكم على أن الشافعى كان متأخرا عن أبى حنيفة ونقل مذهبه ، وميز الصحيح من الفاسد يلزمكم من مساق هذه القاعدة أنه لو تبين بعده فاضل غير مجتهد ذو فنون وذو علوم ، بحيث يتصرف فى

فان قيل : محمد بن الحسن وأبو يوسف كانا فى زمانه وكانا مساويين له فى منصب الاجتهاد ، ونحلا مذهب أبى حنيفة ، وعلما مذهب الشافعى فلماذا لم ينتحل مذهبهما

قلنا : ومن يقول بأنهما كانا مساويين له ؟! وهذه فرية عظيمة إذ هما كانا يتكلمان معه على وجه الاستفادة من عزيز أنفاسه والاحتساء من غزير كأسه ، ويحترمانه غاية الاحترام ونهاية الاحتشام ، ويجلسان بين يديه كأنما على رؤوسها الطير

وحكى عن الشافعى رضى الله عنه لما دخل بغداد حضر مجلس هارون الرشيد ، فأجلسه هارون فى دسته على سريره ، فامتلأ محمد وأبو يوسف حسداً وكادا يتفطران غيظا ويتلظيان غضباً لانهما بعد ما كانا جرباه ولم يقفا بعد على كمال فضله ، فأرادا أن يفضحاه فسألاه عن مسألة على أصل أبى حنيفة ، وقالا : ما تقول فى رجل معه ماء لو توضأ به لم تجز الصلاة بذلك الوضوء ، ولو

لم يتوضأ بذلك الماء لا يباح له التيمم ؟ فحار فيها هارون والحاضرون وقالوا هذا أمر عجيب ماء يجب به الوضوء ولا يجوز أداء الصلاة به ونظروا الى الشافعى حتى يخبر عن جواب المسألة فقال الشافعى رضى الله عنه مستخفا بهما وبالحاضرين : أنا لا أبالى بيقين أبى حنيفة فكيف بمشكوكاته فلما سمعا تحيرا وانقطعا فقال هارون يا ابن عم زدنى فى جواب هذه المسألة بيانا

فقال : من فاسد مذهب صاحبهما أن الحمار سؤره مشكوك فى طهارته لا طاهر بيقين ولا نجس بيقين ولا يجوز أداء الصلاة بالوضوء به ولا يباح له التيمم لان الماء الطاهر بيقين غير معدوم فيجب التيمم والوضوء جميعاً وهذا مشكوك فيه عنده لأنه شك فى نجاسة الحمار فأنا لا أبالى بيقين أبى حنيفة فكيف أبالى بمشكوكاته فارتضى هارون والحاضرون منه ذلك وعهد أبو يوسف ومحمد بعد ذلك أن لا يسألاه عن شىء لأنه يفضحهما ، فأنى يكونان مساويين له فى العلوم وعلى

وأن يراجع عقله وينصف وينفض شوائب الالف والتقليد عن قلبه . وسيوفق الله تعالى فى نظره ليستد نظره إذا عظم وقر الدين فى صدره، وعرف مذاق الشرع فى قلبه ، ولسنا نذكر هذا للتعصب بل هم الذين كانوا يبالغون فى التعصب على الشافعى رضى الله عنه ، حتى أخبر الشافعى بأن محمد بن الحسن وأبا يوسف كانا يدعوان الله تعالى ويقولان « اللهم أمت الشافعى »

فأنشد وقال :

تمنى رجال أن أموت وان أمت
فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذى يبقى خلاف الذى مضى :
تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

ويحكى عن عمارة بن زيد قال كنت صديقاً لمحمد ابن الحسن فدخلت معه يوما على الرشيد فأسر محمد بن الحسن اليه وهو يقول : ان الشافعى يزعم بأنه للخلافة أهل ! فغضب الرشيد وقال : على به ، فأحضر بين يديه

فاطرق ساعة ، وقال أيها الشافعى ، فقال وما أيها يا امير المؤمنين أنت الداعى وأنا المدعو ، وأنت السائل وأنا المجيب ؟ قال بلغنى أنك زعمت أنك أهل للخلافة ، قال حاش لله قد أفك المبلغ وفسق وأثم وظلم ، ولى يا أمير المؤمنين حق القرابة وحق البيت وحق من أخذ بأدب الله ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذاب عن دينه المحامى على أمته . فتهلل وجه هارون ثم قال ليفرخ روعك فانا راعى حق قرابتك وعلمك ، وأدناه ثم قال : كيف علمك بكتاب الله تعالى ، قال جمعه الله فى صدرى وجعل جنبىَّ دفتيه ، وعن أى علم تسألنى يا امير المؤمنين ؟ عن علم تنزيله ، أو تأويله ، أو محكمه ، أو متشابهه ، أم ناسخه ، أم منسوخه ، أم أخباره ، أم أحكامه ، أم مكيه ، أم مدنيه ، أم ليليه ، أم نهاريه ، أم سفريه ، أم حضريه ، أم نظائره ، أم إعرابه ، أم وجوه قراءته ، أم حدوده ، أم عدائده وحروفه ؟

قال كيف علمك بالأحكام ؟ فقال : عبادات أم

مناكحات، أم معاملات أم سير وآداب وتجارب ومحارم، ام عفو، أم عقر، أم عقل وديات، أم الأطعمة، أم الأشربة، وحلال ذلك أم حرامه. قال كيف علمك بالنجوم؟ قال أعرف الفلك الدائر، والنجم السائر، والقطب الثاقب، والمائى والنارى، وما سمته العرب الأنواء ومنازل النيرين الشمس والقمر، والاستقامة والرجوع والنحوس، والسعود وهيآتها، وما أقتدى فى برى أو بحرى، وأستدل به على أوقات صلاتى، وأعرف بها من كل مميز خصم فصيح. فقال كيف علمك بالطب؟ قال أعرف ما قالت الروم مثل أرسطاطاليس ومهراس وفرفوريوس وجالينوس وبقراط وشاهمرد واهرمن وبزرجمهر قال كيف علمك بالشعر؟ قال: أعرف الجاهلى ومعاريضه وآدابه وبحوره وفنونه، وأروى الشاهد والشاذ؟ وما تبديه المكارم؛ قال كيف علمك بالانساب قال هذا علم لايسعنى جهله فى الجاهلية مع تحمل الكفر، وتغمض الحق فأولته أوائلنا إنخاراً

وفضائل وقبائل، ورثته الأصاغر عن الأكابر ، وعهد به الخلف اقتداء بالسلف . وانى لأعرف جماهير الأقوام ، ونسب الكرام ، ومآثر الأيام ، وفيها نسب أمير المؤمنين ونسبي ، ومآثر آبائه وآبائى

فاستوى هارون وقال : يا ابن ادريس لقد ملأت صدرى ، وعظمت فى عينى فعظنى موعظة أعرف بها مقدار علمك . قال بشرط طرح الحشمة ودفع الهيبة وإلقاء رداء الكبر عن منكبيك ، وقبول النصيحة ، واعظام حق الموعظة ، والاصغاء لها ، وجثى الشافعى على ركبتيه ومد يديه غير مكترث فقال : ياذا الرجل ان من أطال عنان الأمل فى العزة ، وطوى عذار الحذر فى المولة ، ولم يعول على طريق النجاة ، كان بمنزلة قلة الاكتراث من الله سقيما وصار فى أمده المحدود مثل نسج العنكبوت لا يأمن عليها نفسه ، ولا يضىء له ما أظلم عليه من لبسه ، أما والله لو اعترفت بما أسلفت ونظرت ليومك ، وقدمت لغدك ، وقصرت أملك ،

وصورت الندامة ، لتستدرك الخيرات غداً فى يوم القيامة ؛ ولكن ضرب الهوى عليك رواق الحيرة ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، فعلا شهيق هارون بالبكاء ، فقالت الخاصة : يكفيك ياشافعى ، فزجرهم وقال : ياعبيد النجعة، وأعوان الظلمة، والذين باعوا أنفسهم بمحبوب الدنيا واشتروا عذاب الآخرة، أما رأيتم من كان قبلكم كيف استدرجوا بالامهال ، ثم أخذوا أخذ عزيز مقتدر، أمارأيتم الله تعالى كيف فضح ستورهم ، وأمطر بواكى الهوان عليهم ، ومن وراء ذلك وقوف بين يدى رب العالمين ، ومساءلة عما هو أخف من الذرة !

قال هارون : كفاك يا ابن ادريس فقد سللت علينا لسانك ، وهو أمضى من سيفك فكيف السبيل إلى الخلاص ؟ فقال أن تتفقد حرَم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم بالعمارة ، وتؤمن السبيل وتنظر فى أمر العامة والثغور ، وتبذل العدل والنصفة وأن لا تجعل

دونها ستراً ، وتهرب ممن يمنعك من ربك ، ويرى لك قطع ما أمر الله تعالى أن يوصل ، قال هارون ومن يطيق ذلك ؟ قال من تسمى باسمك ، وقعد مثل مقعدك ، قال هارون : فهل من حاجة فتقضى ، أم مسألة فتعطى؟ قال أتأمرنى من بعد بذل مكنون النصيحة ، وتقديم الموعظة ، أن أسود وجهى بالمسألة ! فقال هارون يامحمد بن الحسن سله عن مسألة . فسأله عن رجل له أربع نسوة ، فأصاب الأولى عمة الثانية . وأصاب الثالثة خالة الرابعة . فقال ينزل عن الأولى والثالثة ، فقال : ما الحجة فيه ؟ فقال الشافعى رضى الله عنه : أخبرنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يجمع بين المرأة وعمتها ، ولا يجمع بين المرأة وخالتها » لكن ما تقول أنت يا محمد بن الحسن كيف دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وفى أى درب دخل ، وفى

أى محلة نزل ، وأول ما تكلم عند دخوله ، بماذا تكلم وكيف كان ثيابه فى ذلك الوقت ، وعلى ناقة كان أو على فرس ؟ فتحير محمد بن الحسن ولم يحر جوابا . فقال : يا أمير المؤمنين ، سألنى عن حرام فأجبته ، وسألته عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعتع ! فقال والله لو سألته كيف فعل أبو حنيفة لأجابنى ! فقربه هارون وأمر له بمال عظيم فلما نهض قسم المال فى دار العامة على الحجاب وانصرف مكرما . وهذا الذى حكيته من فضله قطرة من بحار علمه وغرفة من أنهار فضله ، وفيه مقنع وبلاغ للموفقين ،

وأوردت فى هذا الكتاب الموجز من العجيب العجاب ، ولباب الألباب ما تحار فيه القلوب السليمة ، والأذهان المستقيمة ، مع مراعاة الانصاف والانتصاف ، ومجانبة الاعتساف

والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب

* * *